تاريخ شعراء العربيّة

العصرُ العبّاسي الثاني

أبو العلاءِ المعرّي



اعداد

الدكتور محمد حسني مصطفى

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

عنوان الدار

سورية – حلب – خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اسمه ونشأته

هو أحمدُ بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، وُلِدَ سنة ٣٦٣هـ في بلدته معرّة النعمان ، بين حلب وحماة ، وأسرته تنحدر من قبيلة تنوخ اليمنيّة ، وقد أصيب بمرض الجُدَري وهو في الرابعة من عمره ، فذهب ببصره ، وكان أهله قد ألبسوه ثوباً أحمر عندما مرض فلم يذكرْ بعد ذلك من الألوان إلا هذا اللون .

وكان بيتُ المعرّي بيت علم وقضاء وشعر ، ونراه يستفيد من هذه البيئة فاستظهر القرآن الكريم ، وأكبّ على علوم الدين والعربيّة ، ثم تابع استيعابه اللغوي والعلمي في حلب ، ولمّا بلغ الثلاثين من عمره عزَم على الصَّوم الدائم فلم يفطر حتى مماته إلّا في العيدين ، يقول :

أنا صائمٌ طولَ الحياةِ وإنّما فِطْري الحِمامُ ، ويوم ذاكَ أعيْدُ[1]

وأمضى سحابة عمره في تقشُّف شديد ، وضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها كثيراً ممّا أباحه الله تعالى ، فكان يأكل العدس والتين والدبس ، ولا يأكل شيئاً آخر ، وكان يلبس خَشِنَ الثياب ، وكان مورده المالي من وَقْف يدرّ عليه ثلاثين ديناراً في السنة ، فكان يكتفي بها ، وقد رزقه الله داراً فسيحة ، وأولاد أخ يخدمونه ، ويقرؤون بين يديه ، ويكتبون له .

---

(١) الحِمام : الموت .

تأثّره بوفاة أبيه

مات والد المعرّي سنة ٣٩٥هـ ، وكان عالماً ، متأدّباً ، يقول الشعر ، رقيق القلب ، وكان خير مِعْوان له ومؤاسٍ في مصيبته لّما ألمتْ به ، إذْ أخذ يعلّمه ويعوّض له بعض ما مُنِيَ به ، حناناً وعطْفاً ورحمة ، وقد ترك موته لدى أبي العلاء فراغاً كبيراً ، مع أنه كان قد تجاوز الثلاثين ، فقال يرثيه :

نقمْتُ الرِّضى حتّى على ضاحكِ المُزْنِ ... فلا جادَني إلّا عُبوسٌ من الدَّجْنِ[1]
فلَيْتَ فمي إنْ شامَ سِنّي تبسُّماً ... فمُ الطعنةِ النجلاءِ تُدْمي بلا سِنّ[2]
أبي حكمَتْ فيه الليالي ولم تزلْ ... رماحُ المنايا قادراتٍ على الطَّعْنِ
أمولَى القوافي كم أراك انقيادُها ... لكَ الفصحاءَ العُرْبَ كالعجَمِ اللُّكْنِ[3]
هنيئاً لكَ البيتُ الجديدُ موسَّداً ... يمينُك فيه بالسَّعادة واليُمْنِ[4]
مُجاوِرَ سَكْنٍ في ديارٍ بعيدةٍ ... من الحيّ ، سَقْياً للديّار وللسَّكْنِ
أمُرُّ بربْعٍ كنتَ فيه كأنَّما ... أمُرُّ من الإكرام بالحِجْرِ والرُكْنِ[4]

---

(١) المُزْن : السحائب . الدَّجْن : الغيم .

(٢) شام : طلب (نظر إلى) .

(٣) يشير إلى تملُّك أبيه لناصية الشِّعْر ، إلى درجة بات يبدو معها الفصحاء ضعافَ البلاغة ، كأنهم الأعاجم أولو العِيّ والرَّطانة .

(٤) بيته الجديد : القبر .

(٥) الحِجْر : مقام إبراهيم عليه السلام في البيت الحرام . والرُّكْن : الكعبة ، عبَّر بجزئها عنها كلّها على سبيل المجاز .

وإجلالُ مَغنـاكَ اجتهـادُ مُقصِّرٍ إذا السيفُ أوْدَى فالعفاءُ على الجَفْنِ[١]
لقد مسَختْ قلبي وفـاتُكَ طـائراً فأقسَـمَ ألّـا يسـتقرَّ علـى وكْـنِ[٢]
يقضّي بقايـا عيشِـه ، وجناحُـه حثيثُ الدَّواعي في الإقامـةِ والظَّعْـنِ[٣]
كـأنَّ دعـاء الموت بِاسْمكَ نكزةٌ فـرتْ جسدي ، والسُّمُّ ينفُث فـي أُذْنـي
سأبكي إذا غنّى ابنُ وَرْقاءَ بهجةً وإن كـان مـا يَعْنيه ضِدَّ الـذي أعْنـي[٤]
ونادبـةٌ فـي مسـمعي كـلُّ قَيْنَـةٍ تغـرّدُ بـاللحن البريء عـن اللحـنِ[٥]
وأحملُ فيكَ الحزنَ حياً فإنْ أَمُـتْ وأَلْقَـكَ لـم أسْلُكْ طريقـاً إلـى الحُـزْنِ
وبعدَكَ لا يهـوى الفـؤادُ مَسـرَّةً وإنْ خان في وصل السرور فـلا يَهْنـي[٦]

سفره إلى بغداد

لم تستطع أمُّهُ - على شدّة إخلاصها إليه وحَدْبها عليه - أنّ تسـدّ الثَّغْـرة التي أحدثها موت أبيه ، وعاش ثلاث سنوات عجـاف قاسية ، لم يَنْعَـمْ خلالها برعاية أبيه ، وعنايته ، وبِرّه ، فأراد أن يرحـل إلى بغـداد ليتأسّى شيئاً مـا عـن

(١) المغنى : المنزل . أودى : ذهب . العفاء : الهلاك والتَّلَفُ . الجَفْـن : الغِمْـد . هـو - مهما عظّم ديار أبيه - مقصّر غير موفٍ له حقّه عليه ، بل إنّه لم يعدْ شيئاً من بعده ، ويشبّه نفسَه بقراب افتقد حُسَامَه .
(٢) وَكْن : وكْر ، عشّ .
(٣) حثيث : سريع . الظّعن : الارتحال .
(٤) ابن ورقاء : ولد الحمامة .
(٥) قينة : مغنّية . اللحن (الأول) : الإيقاع . والأخير : الخطأ .
(٦) لا يَهْني : لا يتهنّأ

مُصابه ، وكيما يطّلع على كنوز العلم هنـاك في دار السَّلام ؛ ولم يرحلْ طمعاً بمال أو ثرْوة ، يقول :

أإخوانَنـا بيـنَ الفـراتِ وجلّـقٍ ... يدَ الله ، لا خبَّرْتُكمْ بمُحالِ[١]
أنبِّئكـم أنّـي علـى العَهْـد سـالمٌ ... ووجهـيَ لمّـا يُبْتَـذلْ بسـؤالِ
وأنـي تيمّمْتُ العـراقَ لغـير مـا ... تيمّمَـه غَيْـلانُ عنـدَ بـلال[٢]
فأصبحتُ محسوداً بفضلي وحدَه ... على بُعْد أنصاري وقلّـةِ مـالي

واختار أبو العلاء الشاعر ذا الرّمّة (غيلان) لأنه كان عفيفـاً لا يتكسّـب بالشعر ، وقد قصد الكوفة في عهد واليها بـلال بـن أبـي بـردة بـن أبـي موسـى الأشعري ، فجادَ عليه بـلال مـن دون أنْ يسـأله غيـلان . فـالمعرّي لم يَـرْضَ أن يذكر شاعراً متكسّباً ، حتى طريقة غيلان لم يسـلكْها ، فـذو الرمّـة قَبِـلَ عطـاءَ بلال ، والمعرّي ـ مع كثرة ما عُرِض عليه من عطاء ـ أبى أن يتعاطى منه شيئاً ؛ لأنه مقتنع ـ كما ذكر ـ بحكمة زهير :

ومَنْ لا يزلْ يستحملُ الناسَ نفسَه ... ولا يُعفِها يوماً من الذّلّ يُسأَمِ

سافَر الشاعر إلى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ أو في سنة ٣٩٩هـ ، وهناك أكبّ على خزائن دار الكتب العريقة التي كان قد أنشأها أمـير المؤمنـين هـارون الرشيد ، وكانت في أمانة عبد السلام البصري ، فرَحّب بابي العلاء ، ويسَّر لـه أمرَ الاطّلاع على ذخائر الكتب عنده .

---

(١) جلّق : الشام (دمشق) . مُحال : مستحيل ، كلام محرَّف . يدَ الله : يقسم بها على صحّة قوله ، ونصب يد بنزع الخافض . ويد الله تعالى : قدرته .

(٢) تيمّم : قصد .

من أخبار الرِّحلة

مرّ أبو العلاء خلال طريقه إلى بغداد بشجرة ، وكان راكباً دابتّه ، فقال له مَنْ يقودُه : طَأْطِئْ رأسَكَ . ففعل . فلمّا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومرَّ بذلك الموضع ، طأطأ رأسَه مِنْ تِلقاء نفسِه . فسُئل عن ذلك فأجاب : هاهنا شجرة . قالوا : ما هاهنا شيء . ثم فحصوا الموضع فإذا أصل شجرة مجتثّة .

يوم وصوله

اتّفق يومَ وصوله إلى بغداد أن مات الحسين الطاهر والد الشريفين : الرضيّ والمرتضى . فدخل أبو العلاء إلى عزائه والناس مجتمعون والمجلس غاصّ بأهله . فتخطّى بعضَ الناس فقال له ، ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ؟

قال أبو العلاء : الكلب مَنْ لا يعرف للكلب سبعين اسماً ثم جلس في أُخريات المجلس ، إلى أنْ قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأنشد مرتجلاً قصيدته في رثاء الفقيد :

أودى فليتَ الحادثاتِ كفاف

فلمّا سمعه ولدا الشريف الطّاهر قاما إليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلّك أبو العلاء المعرّي ؟ قال : نعم . فأكرماه واحترماه .

وكأنَّ هذه اللفظة التي طعنه الجاهل بها لدى وصوله قد عَجَّلَتْ من توافد أشواقه إلى المعرّة .

لامية له في الشوق إلى المعرّة

طرِبْنَ لضوء البارق المتعالي ... ببغداد وهْناً ، ما لهنَ ومالي[1]
سمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنّها ... بناريْه مِنْ هنّا وثَمَّ صوالي[2]
تمنّت قويقاً والصَّراةُ حيالَها ... سرابٌ له من أينُقٍ وجمالِ[3]
إذا لاح إيماضٌ ستَرتُ وجوهَها ... كأنّيَ عمروٌ والمطيُّ سَعالي[4]
لقد زارني طَيْفُ الخيالِ فهاجَني ... فهَلْ زارَ هذي الإبْلَ طَيْفُ خَيالِ
فيا برْقُ ليس الكَرْخُ داري وإنّما ... رماني إليه الدَّهْرُ منذ ليالِ[5]
فهل فيكَ من ماء المعرّةِ قطرةٌ ... تغيث بها ظمآنَ ليسَ بِسَالِ[6]
ندمْتُ على أرض العواصم بعدما ... غدَوْتُ بهافي السَّوْمِ غيرَ مغالي[7]

---

(١) حنَّتْ النّياق ببغداد لمّا لمحتْ برقاً شآمياً في جُنْح الليل . وهْناً : في جزء من الليل .

(٢) صوالي : مضطرمة ، محترقة . ثَمَّ : هنالك . تعلّقت أبصارها بذلك البرق وكأنها تتحرّق بضوئه .

(٣) قويق : نهر حلب . الصَّراة : نهر ببغداد . أينق : نوق .

(٤) إيماض : لمع . سعال : جنّيات . عمرو : هو عمرو بن يربوع ، تزوّج سعلاة (أنثى الغول) فقيل له : إذا رأتْ بَرْقاً تركتْكَ . فكان عمرو إذا لاح برق سترها عنه . إلى أن غفل ذات ليلة ولاح البرق ، فولّتْ لا تلوي على زوج ولا ولد .

(٥) الكَرْخ : منطقة في وسط بغداد .

(٦) سالٍ : متعزٍّ عن مصابه .

(٧) أرض العواصم : المعرَّة وما حولها . السَّوْم : المساومة في البيع ، فصل الثمن . باع بلاده بثمن بخس فندم .

في العاصمة العباسيّة

أقام المعرّيّ ببغداد في محلّة القطيعة على شط دجلة ، وكان يدبّر ضرورات عيشه من ماله الخاصّ الذي حمله معه من المعرَّة . وقد توافد إليه الناس يختبرونه بادئ الأمر ، فأحضروا دستور الخراج الذي في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه وهو يسمع إلى أنْ فرغوا . فابتدأ أبو العلاء فسرد عليهم كلّ ما أوردوه له . عندئذٍ أقرَّ البغداديون بأنّه أعجوبةُ الزَّمان في حِفْظه وعلمه باللغة . وأيضاً فقد قرؤوا عليه ديوانه سقط الزَّنْد بعد وصوله إلى بغداد ، وشهدوا له أنّه شاعر أصيل مبدع .

وأهمّ ما أحبّه في بغداد مجالسها العلمية وخزائن كتبها ، تلك الخزائن التي اطّلع خلال مقامه ببغداد الذي دام سنة وسبعة أشهر على ما فيها من كنوز بحيث لم يَلْقَ فيها ما يحمله معه عند خروجه من بغداد إلّا ديواناً واحداً استعاره من خزانة بيت الحكمة ، وهو ديوان شعر تيم اللّات ، قبيلة أبي علاء التنوخيَّة .

لاميّة أخرى في الشوق إلى أهله

فأذهلُ أنّي بالعراق على شفى ... زريُّ الأماني لا أنيسٌ ولا مالُ[1]

مُقِلٌّ من الأَهْلَيْنِ : يُسْرٍ وأسرةٍ ... كفى حزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإقلالُ[2]

مَتى سألتْ بغدادُ عنّي وأهلُها ... فإنّي عن أهل العواصمِ سَآلُ[3]

إذا جَنَّ ليلي جُنَّ لُبِّي ، وزائدٌ ... خُفوقُ فؤادي كلَّما خفقَ الآلُ[4]

(١) شفى : طرف ، هامش . زريّ : مَعِيب ، ناقص ، أي لم تتحقّق آماله .

(٢) يُسْر : ثروة . بَيْن : ابتعاد . مشتّ : مفرّق .

(٣) العواصم : الحصون . يريد المعرّة وما حولها .

(٤) جَنّ ليلي : أقبل بسواده . جُنّ : غُيِّب . خفَقَ : رقَص ، لَمع . الآل : السَّراب .

ومـاءُ بـلادي كـان أَنْجـعَ مَشْـرَبـاً ... ولو أنّ ماء الكَرْخ صَهْباءُ جِرْيالُ[1]
فيا وطنـي إنْ فـاتني بكَ سـابقٌ ... مـن الدهـر فَلْيَنْعَمْ لِسـاكنِكَ البـالُ[2]
فإنْ أستطعْ في الحشر آتِكَ زائراً ... وهيهـاتَ ، لـي يـومَ القيامـةِ أشـغالُ

الـعَـوْدَة

لاقى أبو العلاء في بغداد إكراماً ، وتعـرَّض لمواقـف ليـس فيهـا إكـرامٌ ، أشرْتُ من قبل إلى ما كان منها يوم وصوله إلى بغـداد ، ومنهـا أيضـاً أنّـه قصـد مجلس عليّ بن عيسى الرّبَعي ، فلما استُئذن له قال الربعي : ليصعد الإصطبـل ، يريد (الأعمى) .

ومنها أنّه كان يوماً بمجلس الشريف المرتضى ، وقد جـاء ذكـر المتنبي ، فتنقّصه الشريف ، وجعل يتتبّع عيوبه ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي مـن الشعر إلا قصيدته :

لكِ يا منازلُ في القلوب منازلُ ... أقفَرْتِ أنتِ وهنّ منْكِ أواهِلُ

لكفاه فضلاً .

فغضب الشريف المرتضى ، وأَمَرَ فسُـحِبَ أبـو العـلاء برِجْلـه ، وأُخـرجَ مُهاناً من مجلسه ، وقـال لمن يحضرونه :

---

(١) أنجع : أنفع . الكرخ : محلة في بغداد ، يريد بغداد . صهباء : خمرة . جرْيال :حمراء، الجِرْيال : صبغ أحمر .

(٢) سابق : موت .

أتدرون أيّ شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فإن_ للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكره ؟

قالوا : النَّقيبُ السيِّدُ أَعْرَفُ .

فقال : أرادَ قولَ المتنبّي في هذه القصيدة :

وإذا أتتكَ مَذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأنّي كامل

ومثلُ أبي العلاء في دقّةِ إحساسه يكون تأثّره بمثل هذه المواقف أو لدى استماع أيّ كلمة لا تليق شديداً جدّاً ، فكانت هذه المؤثّرات من جُمْلة ما وجّهه بعد عودته إلى العُزْلة حتى الممات . وهذه المواقف المُحْرِجة ، وما ماثلها ، كانت سبباً لعودته ، وإلى جانبها كان ثمّة سببان آخران ، هما ضيق ذات يده . فقد نفِذ ما أتى به معه من مال ، ولم يكنْ يقبلُ من أحد عطيَّة ، وما نُمِيَ إليه من نبأ مرض أمّه ، فعَجلَ إليها ، ولكنّ الموت إليها كان أعجلَ منه :

أثارني عنكمُ أمران : والدةٌ لم ألْقها ، وثراءٌ عاد مَسْفوتا[١]
أحياهما الله عصرَ البَيْنِ ثم قضى قبلَ الإيابِ إلى الذُّخْرَينِ أنْ مُوتا

ومنذ وصَل إلى المعرَّةِ بدأ بحياة عُزْلة دامت قرابة خمسين سنة ، ولم يغادرْ منزله إلّا لصلاة جماعة ، أو لضرورة قصوى ، وفرَض على نفسه ثلاثةً من ألوان الحبس :

أراني في الثلاثةِ من سجوني فلا تسألْ عن الخبرِ النَّبيث[٢]
لِفَقْدي ناظري ولزوم بيتي وكونِ النفس في الجسم الخَبيث

(١) مَسْفوت : قليل البركة .

(٢) النبيث : الشرّير ، المخبوء (السّرّ) .

ذكـريــات بـغـداد

لم يَقْلِ أبو العلاء مدينةَ السَّلام ، وإنْ ناله بعضُ إساءات من فريق فيها ، لأنّ أكثر أهلها أكرموه ، فقال وهو يودّعها ويودّع أهلها :

أودّعُكم يا أهلَ بغداد ، والحشـا على زفراتٍ ما يَنِيْنَ من اللّـذْعِ(١)
فبئسَ البَدِيلُ الشّامُ منكم وأهلُه على أنّهـم قومـي وبينهـمُ رَبْعــي
ألَـا زوِّدونـي شربة ولـو انّنــي قدرْت إذاً أفنيتُ دجلـةَ بـالجَرْعِ(٢)

وكلام أبي العلاء هاهنا متناقضٌ وما قاله حين فضَّل ماء بلاده ، وسالك مَسْلك كثير من الشعراء أو أكثر الشعراء الذين ﴿ في كلّ وادٍ يَهِيْمون ﴾ .

وبقي أبو العلاء يذكر العاصمة العباسيّة بخير ، ويتذكّر بعض أصحابه فيها ، مثل أبي القاسم التنوخي الذي بعث إليه بتائيّته الذائعة التي يقول في تضاعيفها :

يـا عارضـاً راح تحـدوه بوارقــه للكَرْخ سُلّمتَ مـن غَيْثٍ ونجيتا(٣)
لنـا ببغـداد مــن نهـوَى تحيّتَـه فــإنْ تحمّلْتَهـا عنـا فحيّيتـا
يا بن المحسِّن مـا أُنسِيتُ مَكْرُمَـةً فـاذكرْ مودّتنـا إن كنـتَ أُنْسـيتا(٤)
سـقْياً لدجلــة ، والدنيـا مفرّقـةٌ حتـى يعودَ اجتمـاعُ النّجْم تشـتيتا
وبعـــدَها لا أريدُ الشُّرْبَ من نَهرٍ كــأنّما أنا من أصحاب طالوتا(٥)

---

(١) ينين : يضعفن ، يفتُرنَ .

(٢) الجرْع : الشرب .

(٣) عارضاً : سحاب .

(٤) ابن المحسّن : هو أبو القاسم التنوخي .

(٥)يشير إلى قوله تعالى ﴿ومن لم يطعمه فإنّه منّي﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

رحلْتُ لم آتِ قِرْواشاً أزاولـه | ولا المهذَّبَ أبغي النَّيْلَ تقويتا[1]
والموتُ أَحْسَنُ بالنفس التي أَلِفتْ | عزَّ القَناعةِ من أنْ تسألَ القُوتا
بتَّ الزَّمانُ حِبالي من حبالِكمُ | أعززْ عليّ بكونِ الوصلْ مبتوتا[2]
أَعُدُّ من صلواتي حفظَ عهدكمُ | إنَّ الصَّلاة كتابٌ كان موقوتا

من رثائه لأمه

مضَتْ وقد اكتهلْتُ فخلْتُ أنّي | رضيعٌ ما بلغْتُ مدى الفِطَامِ
فيا ركْبَ المَنُونِ أما رسولٌ | يبلّغ روحَها أرَجَ السلام[3]
سألْتُ متى اللقاءُ فقيل حتّى | يقومَ الهامدون من الرِّجام[4]
فليتَ أذِينَ يومِ الحشرِ نادى | فأجْهَشَتِ الرِّمام إلى الرِّمام[5]

شعره وآثاره

ترك أبو العلاء من بعده قُرابة مائة وخمسة وسبعين كتاباً ، فُقِدَ معظمها عندما اقتحم الصليبيّون المعرّة وعاثوا فيها فساداً ، وله في الشعر ثلاثة آثار : سقط الزند ، والدَّرْعيات ، واللُّزُوميّات .

سقط الزند

هو مجموع القصائد التي نظمها الشاعر في الطَّوْر الأوّل من حياته إلى ما بعدَ رجوعه من بغداد ، ويدخل فيه أيضاً بعض ما نظمه بعد ذلك إلى حين وفاته .

(١) قرواش ، والمهذّب : من زعماء بغداد آنئذ . النَّيْل : العطاء .
(٢) بتَّ : قطع . (٣) أرج : رائحة .
(٤) الهامدون : الموتى . الرجّام : القبور .
(٥) أذين : منادي الحشر . أجهشت : ارتفع صوتها بالبكاء . الرِّمام : العظام البالية .

ومن البديهيّ أن يشمل هذا الديوان ثلاث مراحل من حياة المعرّي ، طور الصبا ، ويشمل ما قاله وهو دون العشرين ، (سنة ٣٨٣هـ) ، وطور الشباب ، ويمتدّ إلى حينِ عودته من بغداد سنة ٤٠٠هـ، وطور الكهولة والشيخوخة ، وينتهي بموته سنة ٤٤٩هـ .

وما قاله في طَوْر الشباب هو أجمل شعره - في الغالب - إذ كان قد استوى فيه فنّه الشعريّ ، وأسوق مثلاً منه قوله في اللامية :

ألا في سبيل المجدِ ما أنا فاعلُ ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُه ... لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائلُ

إذا كان في لبس الفتى شَرَفٌ له ... فما السيفُ إلّا غِمْدُهُ والحمائلُ[1]

ولمّا رأيتُ الجهلَ في النّاس فاشياً ... تجاهلْتُ حتى ظُنّ أنّيَ جاهِلُ

فواعجبًا كم يدّعي الفضلَ ناقصٌ ... ويا أسَفاكم يدّعي النّقْص كامِلُ

وهذا نموذج آخر :

علّلاني فإنّ بيضَ الأماني ... فنيت والظّلام ليس بفانِ

إنْ تناسيتما ودادَ أناسٍ ... فاجعلاني مِنْ بعض مَنْ تذكرانِ

ليلتي هذه عروسٌ من الزّنْج ... عليها قلائدٌ مِنْ جُمانِ

هرَبَ النّومُ عن جفونيَ فيها ... هرَبَ الأمْنِ عن فؤاد الجبان

الدّرْعيات

تُسمّى أيضاً ضوءَ السّقْط ، لأنها تُكْمل سقط الزند ، وأفردها وحدَها لأنّها تتناول موضوعاً خاصّاً هو وصف الدروع على لسان رجلٍ طعن في السّن فترك لُبْسَها ، أو على لسان رجل رهَنها، وأحياناً يعقد حواراً بينها وبين سيف قاطع ، أو بين غلام وامرأة باعتْ درع أبيه .. وهي تدلّ على تضلّعه باللغة وأحوال العرب .

---

(١) الحِمالة : علاقة السّيف .

اللزوميـــــات

قصائد قالها المعري بعد رجوعـه مـن بغْداد إلى المعـرّة ، وفيهـا يُـلْزِم نفسَه أن يأتي بحرفين (رويَّيْن) في القافية ، وأحيانـاً يلتزم ثلاثـة أحـرف . ومـن ناحيـة المضمـون أوعاهـا فلسـفته في الحيـاة ، وضمّنهـا أيضـاً إشـارت تاريخيـة واصطلاحـات علميـة ، وألوانـاً مـن الغمـوض وأسـاليب البـداوة والمحسنات البديعيّة والألغاز ، وانتقاد مثالب المجتمع والحُكْمِ الفـاطمي الـذي كان في مصر ،ووجّه بعوثه فاحتلّت الشَّام وغيرها .

تــديّنـــه

اختلـف الدارسـون في أبـي العـلاء ، فذهـب فريـق إلى إخراجـه مـن الإسـلام ورمـاه بـالكفر البـواح ، وبإنكـاره للحـجّ ، وباتباعـه الطريقـة الهندوكية في الحياة . وهذا رأي الدكتور طه حسين . وذهـب آخـرون إلى أنه مؤمن راسخ العقيدة .

ومن يقرأ فيما نُسِبَ إلى المعـري مـن أشـعار يجد في بعضهـا انحرافـاً واضحاً عن الإسلام ، ويجد أكثرها لا تخالفه . ويهمّنـا هنـا القسـم الأول ، فإنّ فيه ما يخرجه – إن ثبتَ لـه – مـن ديـن الله إخراجـاً ، لكـنّ أبـا العـلاء نفسَه تنصَّل منه وتبرّأ مـن أيّ كلمـة تنطـوي علـى مـروق ، واتّهـم أعـداءه بأنّهم هم الذي افتروها على لسانه افتراء :

وقد نطقوا مَيْناً على الله وافتروْا　　　فما لهمُ لا يفترونَ عليكا[1]

وألَّف في هؤلاء رسالته "زجْر النَّابح" ، وفيها يدفع عـن نفسـه نسـبة الأبيات الملحدة ، ويؤول أخرى يحاول أعداؤه أن يوجّهوا معناها بحسب مـا تمليه خصومتهم .

---

(١) مَيْناً : كذباً .

وأبو العلاء يحاجّ عن الدّين بمنهج عقلي أحياناً ، كما في قوله :

زعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهمـا — أنْ لا مَعـادَ فقلـت ذاك إليكمـا
إنْ صـحَ قولكما فلستُ بخاسرٍ — أو صحَ قولي فالوَبالُ عليكمـا[1]

وأحياناً يتبدّى معتقده السليم من أقواله وإخباره عن أفعاله :

أقيم خَمْسِي وصومَ الدهرِ آلِفُـهُ — وأدمـنُ الذِّكْر أبكاراً بآصـال[2]

* * *

قـد راعنـي للحسـاب ذِكْـرٌ — وغرّنـي أنّـه بعيـدُ
وعـن يمينـي وعـن شِمالي — بصحبتـي حـافظٌ قَعِيـد

* * *

ومغفـرة اللـه مرجـوّةٌ — إذا أصبَحتْ أعظمي في الرِّمَـمْ
ويـا ليتَنـي هـامدٌ لا أقـومُ — إذا نهضوا ينفضُـون اللِّمَـمْ[3]
ونـادى المنـادي علـى غَفْلـةٍ — فلمْ يَبْـقَ فـي أذْنٍ مِـنْ صمَـمْ
وجـاءت صحـائف قـد ضُمّنَـتْ — كبـائرَ آثـامهمْ واللَّمَـمْ[4]
وليـتَ العقوبـةَ تحريقـةٌ — فصـاروا رمـاداً بهـا أو حُمَـمْ[5]

* * *

وما أنا يائسٌ من عَفْـوِ ربّي — على مـا كان من عَمْدٍ وسَهْوِ

وله قصيدة رائعة في مديح النبي صلى الله عليه وسلم والإشادة برسالته السمحاء ، آخرها:

فصلّى عليه اللهُ ما ذرّ شارقٌ — وما فَتّ مسكاً ذِكْرُهُ في المحافلِ[6]

إنّما عليه مآخذ ، ولم يُعْصم إلّا الأنبياء .

---

(١) الوبال : الخسار . (٢) الأصيل : وقت ما بين العصر والمغرب .
(٣) اللِّمم : جمع لِمّة ، وهي ماجاوز شحمة الأذن من الشعر .
(٤) اللّمم : الذنوب الصغيرة . (٥) الحُمم : ما أحرق من خشب ونحوه .
(٦) ذرّ : ظهر . شارق : نجم ، شمس .